المحاسنى
فى نبوغه ورفقته

لاديب البحث والعربية والحقوق
الأستاذ ظافر القاسمى
النقيب السابق للمحامين ـ سورية

فى أواخر العشرينات، كان يلتقى أربعة من الشباب، نذروا أنفسهم للعلم والادب، وعشقوا الفصحى، حتى كادت تكون لغتهم الوحيدة فى الخطاب، ونظروا الى الحضارة العربية نظرة التقديس، واخذوا من اسباب الثقافة الحديثة بنصيب تفوقوا معه على الاقران. هؤلاء الشباب هم: مسلم القاسمى، وزكى المحاسنى، وعبد الحليم العلمى، وحسن العشا. كان لقاؤهم يقع فى بيت احدهم، أو فى احد المتنزهات، وربما آثروا سفح قاسيون على غيره فى ليالى الصيف، ينعمون بهوائه الطلق، وبهذا المنظر الخلاب الذى يرون فيه عاصمة الامويين تمتد تحت أقدامهم، وهم يتذاكرون، ويتناقشون

ويتمازحون. كنت فى الرابعة عشرة، أو أقل، حينما كانوا يجتمعون فى بيتنا القديم بباب الجابية، وكنت أقوم على خدمتهم. فأعمر السماور، وأطوف عليهم بأكواب الشاى. وكانوا يأنسون أيما أنس فى هذا اللقاء، لأنه كان يعقد على الغالب فى غرفة كنا نسميها (مربع الكتب)، لأن مكتبتنا، أو معظمها قد جمعت فيها، فاذا ما احتاجوا للرجوع الى مصدر من المصادر، أو أى كتاب من كتب الامهات، كان قريبا منهم. وأشهد أننى طلعت من هذه الاجتماعات بكثير من الفوائد، وعيتها عنهم، وحفظتها من أفواههم، وأنا فى سن مبكرة، فاليهم جمعياً يعود كثير من الفضل فى تكوين ثقافتى، وأخذت عنهم عشق الفصحى، والنطق بها، والزراية على من تنكب عنها. وكانوا جميعاً لا يعرفون من اللغات الأجنبية إلا الفرنسية، لأنها اللغة الوحيدة التى كانت تعلم أيام الانتداب، وعلى أنهم جميعا من طلاب (مكتب عنبر)[1]، فقد تفوقوا فيها على أقرانهم، على الرغم من ضعفها فى تلك الأيام، فى الثانوية الوحيدة فى مدينة دمشق.

وربما جاء احدهم بقصيدة من روائع الأدب الفرنسى، فقرأها وشرحها، وجرت المذاكرة حولها، وربما ترجمها، فقرأ على إخوته ما ارتآه من نقل لها الى لغة العرب، فكان النقاش يدور حول لفظ أو معنى. وكنت استمع الى ذلك كله، فأجد فيه ما يشبه السحر. كان أعظم ما يشدنى الى هذا المجلس هذا الصفاء بين اللدات

(١) للاستاذ ظافر القاسمى مؤلف قيم عن هذا «المكتب» أو المعهد الحكومى الكبير الذى خرج رواد الفكرة العربية وطلائع النبوغ فى العلم والادب.

والاقران، فلا حسد ولا غضب ولا خصام. وإذا رددت اليوم القول المأثور: (مجلس العلم روضة من رياض الجنة) تمثل امامى ذلك المجلس الخصب بأخلاق جلاسه، وطيب أنفاسه، ورفيع مذاكراته، وشيق مناقشاته، ومليح نكاته. ولم يكن هذا المجلس فريدا فى مدينة دمشق، وإنما كانت له أشباه ونظائر، فما كان الشباب ليلهو بمغريات اليوم، وما فيها من مفاسد.

وكان فى تلك الايام مجلات شهرية وأسبوعية، يعتبرها المثقفون جميعا، والشباب خاصة، منهلهم الاول فى ثقافة العصر، هى: المقتطف والهلال والسياسة الاسبوعية، وما أدراك ما السياسة الاسبوعية فى ذلك الحين! كانت مجلة أسبوعية يقبل عليها القارىء يوم وصولها، ولا يكاد يعب ما فيها من ينابيع الثقافة الصافية حتى يصل العدد الجديد. وكان احتواؤها، وحملها، دليلا على أن محتويها وحاملها من صفوة المثقفين. وما كانت أقلام كتابها إلا أقلام الطليعة من الادباء. ويغامر الشاب زكى المحاسنى، وينقل بحثا عن الفرنسية (فيما أذكر) ويرسله الى السياسة الاسبوعية فى القاهرة حتى يرى المشرفون عليه نصاعة الاسلوب، وسلامة اللغة، وحسن اختيار الالفاظ وأهمية الموضوع فينشرون البحث (للاستاذ) زكى المحاسنى، وزكى يؤمئذ شاب لما يتمم دراسته الجامعية، ويتوالى اللقاء بين الاتراب، حتى اذا كان عام ١٩٣١، نال مسلم جمال القاسمى شهادة الطب، وكان بين خطباء حفلة التخرج، وبعد أيام أقعده المرض ثم اختاره الله فى تشرين الثانى من السنة نفسها، أى

بعد أربعة أشهر من أخذه شهادة الطب، فانقطع اللقاء فى بيتنا، غير ان العلاقة ظلت بينى وبين لداته الثلاثة قائمة، علاقة الاخ الصغير بالاخ الكبير.

وتمضى شهور، لا أدرى عددها، فألتقى بزكى المحاسنى فى أروقة محاكم الصلح. كنت يومئذ ما زلت طالبا فى مكتب عنبر، وكان هو محاميا ناشئا، فيطلعنى على عدد من مجلة (الحديث) التى كان يصدرها سامى الكيالى فى حلب، وفى هذا العدد قصيدة له، حفظت منها على الفور مطلعها:

أما الخدود فانها تفاح
والريق فى هذى المباسم راح
وعلى الطريق أوانس فتانة
خطواتهن على القلوب جراح

ويعلمنى أنه نظم قصيدة مطولة فى رثاء أخى مسلم القاسمى، فأتواعد معه على اللقاء، ويسمعنى القصيدة المطولة فى بيته، فاذا هى عنوان من عناوين وفاء زكى المحاسنى، الذى سأتحدث عنه بعد قليل.

وكان الاستاذ محمد كرد على، رحمه الله، رئيس المجمع العلمى العربى، حريصا على تشجيع الشباب. وكان من الوسائل التى سلكها لهذا التشجيع ان اقام حفلة خاصة فى قاعة المحاضرات بالمجمع، لاربعة من الشباب، منهم الشاعران زكى المحاسنى وأنور

العطار فألقى كل واحد من الاربعة قصيدة له وكان ذلك تنبؤا صادقا من الرئيس الراحل فى نبوغ هؤلاء الشباب، فكلهم قد حقق ظنه، وغدا مرموقا بين معاصريه.

ويبدو لزكى المحاسنى أن يعتزل المحاماة، وان ينصرف الى تعليم اللغة والادب، فلهذا خلق، وهذه هى رسالته التى هيأه الله لادائها، فنشأت افواج متعاقبة أخذت عنه لغة العرب وآدابها.

وتمضى السنون والمحاسنى ماض فى دراسته وتحصيله حتى يأخذ الدكتوراه من جامعة القاهرة عام ١٩٤٧ فكان اول سورى أو عربى حمل هذا اللقب العلمى من غير المصريين، فكلفه سبقه وتفوقه حقد الحساد، على أن المحاسنى أوفد الى الجامعة المصرية وهو معلم متمكن وأديب وقد عرف فى دمشق والعالم العربى بشعره الذى كان ينشره فى الصحف أو يلقيه فى الندوات فذهب الى مصر متمرسا بالعربية وآدابها وعاد منها متمكنا فى البحث والتأليف والدراسة الجامعية فتلقته دمشق بالحفاوة وأقبل عليها يفديها بعلمه وعمله متنقلا بين التدريس فى الجامعة أو فى وزاراة التربية ويرسل مرة ثانية وثالثة الى مصر فى مهمة ثقافية بالسفارة السورية ثم فى تخطيط التعليم العالى بالقاهرة أعوام الوحدة.

مضت سنون أخرى حتى اذا كان عام ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦ميلادية ذهبت الى الاراضى المقدسة لاداء فريضة الحج. وكان وزير الحج والاوفاق يومئذ الاستاذ الحافظ محمد عمر

توفيق[1] صديقا لى ونسيبا، فأعلمنى ان رفيقى فى أداء المناسك هو الدكتور زكى المحاسنى. كان يومئذ معارا لجامعة مكة من وزراة التربية . ولا تسل عن ابتهاجي بهذا الرفيق الانيس الذى ساقته الاقدار الى. كان أول ما بادرنى به قوله: انت مطوفى، وحجتى فى رقبتك. وكان ان بدأنا بالطواف، فضايقه الازدحام، ودفع الناس بعضهم لبعض على غير نظام، وقرأت فى وجهه، وهو الى جانبى، الرضا والصبر، فقلت له: (حفت الجنة بالمكاره) فقال: (وحفت النار بالشهوات)، وأخذت أقرأ أدعية من كتاب خاص أقتنيته لهذا الغرض، وكان يرددها معى، حتى اذا انتهينا من الطواف حول البيت المقدس أعاد على: (حجتى فى رقبتك). وقضينا بعد ذلك ليلة فى عرفات، توجهنا بعدها الى منى، حيث قضينا ثلاث ليال. كنا نسمر فى منى بدار وزارة الحج، وقد دعا وزيرها من اجلنا عددا من العلماء والمفكرين والادباء والشعراء، بعضهم من السعودية، وبعضهم الاخر من اعيان البلاد العربية الاخرى، الذين وفدوا للموسم. واشهد أن زكى المحاسنى كان قطب الرحى فى المذاكرة التى جرت ثلاث ليال، يخوض فى كل موضوع ويستشهد بالآى والحديث والشعر والنثر فيطرب السامعين. وربما وقع خلاف حول موضوع من المواضيع، فينبرى زكى المحاسنى لتأييد هذا أو ذاك، وكثيرا ما كان رأية الموفق فصل الخطاب. أما اذا تعلق الامر بجلاء غامض، أو رفع شبهة، أو تحرير قول، فانه كان من المجلين. كان زكى المحاسنى فى

(١) هو أديب ناقد بعيد عن الضوضاء وله مؤلفات فكرية وادبية.

هذه الليالى الثلاث علما بين الاعلام، وحجة بين الباحثين، وراوية بين الرواة.

ويقدر لى أن اعود الى لبنان لاتولى تعليم اللغة العربية فى كلية التربية من الجامعة اللبنانية، فأعود لارى فيها أيضا زكى المحاسنى أستاذا فيها وفى كلية الآداب، فنجدد العهد، ونستعيد الذكريات المليئة بالنور والحق.

كان أخى زكى المحاسنى مثلا شرودا فى الوفاء، فما من صديق أصدر كتابا، أو تزوج، أو رزق ولدا، أو احتسب ولدا، أو نابه شأن من شؤون الدنيا خيرها وشرها، الا وراسله مهنئا أو معزياً أو مواسياً أو مشجعا وهذه صفحات مجلة (الاديب) البيروتية، تشهد فى كل عدد من اعدادها، ولا سيما فى السنوات الاخيرة، بأنها لم تخل من مقطوعة نثرية أو شعرية فى باب الاخوانيات لزكى المحاسنى.

أقبل على الشعر فجود فيه، وكان من فرسانه، ولو أن ديوانه بين يدى[1] لأيدت أقوالى بالكثير من روائعه. وأقبل على النثر، فاذا هو من فحولة: اسلوب قرشى صاف مشرق، لا ترى فيه عوجا ولا امتا.

واقبل على التأليف، فاذا هو باحث مستقص، يجمع اطراف الموضوع فى ردنه، ثم ينظمه كالعقد، فى أبواب وفصول، فقلما تجد ثغرة فى بحث من ابحاثه.

---

(١) سينشر قريبا.

ولقد أفادته ثقافته الفرنسية، واطلاعه على المنهج الحديث فى البحث، فأخذ بأصوله، واتبعه فى جميع كتبه، فكان بذلك فى طليعة الشعراء والكتاب المعاصرين الذين قدموا للمكتبة العربية روائع الآثار.

رحم الله أخى زكيا، فقد كان زكيا حقا، فى خلقه وعلمه وأدب نفسه وقلمه. وهيهات أن تجود الأقدار بزكى آخر..

***

obeikandl.com